مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء التاسع والعشرون يوم السبت 29 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يقبل منّا أعمالنا وأن يتمم علينا صيامنا وقيامنا بالقبول، ويجعل ما مضى من أعمال في موازين حسناتنا، يثقلها لنا ويضاعفها لنا ويغفر لنا ما وقع من زلل وخطأ، وهو الغفور الشكور.

نلتقي اليوم في أحد المهمات التربوية التي أرشدنا إليها كتاب الله -عزَّ وجلَّ- في سورة عظيمة، وكل سور القرآن عظيمة، وفي قصة عجيبة، وكل قصص القرآن عجيبة.

سورة القلم فيها من أسرار النفس الإنسانية ما فيها. والحقيقة أن قصص القرآن كلها إذا وُفِّق الإنسان وكانت معه الأداة لفهم هذه القصص، وهي اللغة، سيكتشف في القصة وأحداثها والتعبيرات القرآنية عنها أسرارًا للنفس الإنسانية، وفهم هذه الأسرار عن نفسنا من المهمات التربوية، وفهم معاملة الله لنا حينما تظهر من نفوسنا هذه الأمور، هذه هي

المهمة التربوية العظيمة، نفسك التي بين جنبيك مجهولة لك، وما اجتهدت أيها الإنسان في معرفتها من أجل أن تصل إلى تطهيرها، وهي مهمتك الأساسية وهي أنك بُليت بنفسك وبُليت بظروف معينة كل مرة تكون محيطة بك تظهر لك من نفسك ما الله به عليم، ماذا تفعل مع نفسك لما يحصل هذا؟ ثم كيف يعاملك الله!

وهنا سنذكِّر أنفسنا بمهمة تربوية مرت معنا وهي من أهم المهمات، مرت معنا في مطلع سورة العنكبوت، أخبرنا رب العالمين -وهو العليم الحكيم- ببطلان حسبان الناس أن يُترَكوا أن يقولوا: "آمنّا" وهم لا يفتنون؛ لذلك سورة العنكبوت العظيمة خُتِمت بهذه الآية العظيمة التي تشير إلى وظيفتنا المستمرة في الحياة التي تبدأ من داخلنا قبل أن تنطلق إلى الخارج. يقول -عزَّ وجلَّ-: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)، لا تحسب أنك تعيش في الحياة لا تُبلى، بل تُبلى حتى يظهر منك أنت أولًا الحقيقة. هذ أمر مهم، أن الله يبتلي الناس بالبلايا لكي تظهر

لهم حقيقة أنفسهم، فإن أحسنوا زكوها، وإن أساؤوا لنفسهم تركوها.

ونحن نتدارس في سورة سبأ سمعنا كلام رب العالمين عن إبليس وكيف أنه صدق على الناس ظنه، وأخبرنا -عزَّ وجلَّ- أنه (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ). حتى الشيطان يبتلى به الإنسان وبوساوسه لأجل أن يخرج من فؤاده حقائقه، فإذا خرجت هذه الحقائق عرف الإنسان نفسه، فإذا عرف نفسه سيختار: سيزكيها أو سيتركها ويهملها.

هنا ستأتي سورة القلم، وسنشير إشارة سريعة إلى صلتها بسورة الملك وهذا من أعظم الابتلاءات التي يعيشها الإنسان.

صلة سور القلم بسورة الملك تبين لنا الخطر! ما هو هذا الخطر؟ هذا الخطر نبهنا الله -عزَّ وجلَّ- عليه من أن أنزل القرآن، هذا الخطر هو **الطغيان**، يا له من خطر عظيم، لو يعلم الإنسان أنه يمكن أن تكون خطوة من خطواته توصله إلى الطغيان الذي يكون سببًا لهلاكه. تصور كيف أن حياة

الإنسان مليئة بالبلاءات التي يمكن أن تُظهِر من هذا الإنسان الطغيان؛ لذلك قال تعالى: (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) هذه نزلت في سورة العلق التي هي أول سورة نزلت على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لنتصور مقدار الخطر الذي يحيط بالإنسان. فلما جاءت سورة الملك تخبر أن الملك بيد الله، وأن الله قد جعل الدنيا دار اختبار واختبر الخلق بهذه الأشياء التي يتملكونها، بهذه الأشياء التي يظنون أنهم قادرون عليها، هذا المعنى أتى في سورة القلم. المعنى الأول أن الملك لله وأنه ابتلى الناس جاء في سورة الملك، وكرر الله على الخلق، بصور بديعة وعجيبة، أن هذه الدنيا ليست لكم وأنتم لستم آمنون هنا، الله الذي جعل لكم الأرض ذلولًا لكن لا تأمنوا، من أي جهة أنتم آمنون؟ من ينصركم من دون الرحمن؟ من يرزقكم إن أمسك رزقه؟ (إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا) من سيجيركم من العذاب.

لذلك تختم السورة بلفت النظر للتفكير في حالة من الحالات التي يسير أن تحصل: أن يصبح الماء غورًا، يكون موجودًا لكن يغور في الأرض ولا يستطيع الناس أن يأتوا به. إذا

شاء الله وابتلاكم بذلك (فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ)! فلا تنخدع وتصل إلى حد الطغيان. أقل إنسان يتمكن من أقل شيء يصبح عنده طغيان! ويبذل جهده أن يمنع خيره عن غيره، وهذا يلاحظ حتى في ألعاب الأطفال.

الأطفال يكونون زاهدين في هذه اللعبة، زاهدين في هذا الشيء، ما أن يجدوا أحدًا أعطى هذا الشيء قيمة، إلا ويهجمون عليه ويمنعون غيرهم، هذه كأنها النقطة الأولى في الطغيان، لكن يأتي أعلى من ذلك ويتحكم في الناس الذين يلعبون معه، ويجعل ملكه للعبة أو ملكه لهذا الشيء الذي يتنافسون حوله، يجعله سببًا لأن يتحكم فيهم ويمنع هذا ويعطي هذا. لهذه الدرجة هذه الصفة خطيرة في النفس الإنسانية.

الملك، ملكك لأي شيء، لأبسط شيء، لأقل شيء، وليس شرطًا أن تملك جرمًا من الأشياء أو مالًا، حتى لو تملك قرارًا، حتى لو تكون حارسًا على الباب تدخل هذا وتمنع هذا، مباشرة تخرج صفة الطغيان، إلا أن يزكي الإنسان نفسه.

وهناك فرق كبير بين أن أكون شخصًا أقوم بالواجب عليّ في منع هذا وإدخال هذا، وبين أني أمارس في هذا الأمر هذه الصفة النفسية: الطغيان.

الملك لله، وأنت زائل عن الملك والملك زائل عنك، ولما ملكك أيها الإنسان المسكين كن حذرًا من أن يتسرب الطغيان إلى فؤادك، واعلم أن الناس يختلفون في هذا الموقف، لو ملكوا الشيء القليل قبل الكثير ماذا سيكون حالهم؟ سيطغون، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

في أول السورة رب العالمين بيَّن حال هؤلاء الكافرين، الذين كفروا بنبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأن سبب كفرانهم هو أن الله وهبهم، وأعطاهم، ومتعهم فهذا الذي مُتِّع وأنعم الله عليه كذّب، وهو في صفته منّاع للخير، وفي صفته أنه معتد أثيم كثير الذنوب والمعاصي، والذي سبب له أن يقود حملة التكذيب والاعتراض (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بسبب كثرة ماله وولده طغى واستكبر على الحق، ولما جاءه الحق ما أعطى نفسه فرصة أن يفكر (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا) مباشرة (قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

(أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) ألأن الله نعّمه تكون هذه حالته؟ نعم، والسبب: الطغيان الذي يخشى منه الإنسان المؤمن، التقي. والتقوى في كثير من المواقف هي أن تمنع نفسك من أن تكون طاغية. حينما تسمع كلمة "طاغية" لا تفكر في فرعون، أو تفكر في هتلر، أو تفكر في ستالين ولينين، أو الذين حملهم التاريخ القديم أو المعاصر من المجرمين على أن هؤلاء هم الطغاة، فالطغيان درجات كما أن الملك درجات، ولنجعله دركات؛ فالطاغي يزداد طغيانًا ويسقط في الحضيض كلما زاد ملكه وترك نفسه بلا حساب، والله المستعان.

رب العالمين حكى للخلق عامة أن هؤلاء الطغاة المكذبين بسبب ما ملَّكهم رب العالمين حالهم يشبه حال هؤلاء الذين سيحكي لنا رب العالمين قصتهم، وهذه القصة رغم أنها كثيرًا ما تتداول، لكن مثل بقية قصص القرآن لا زال فيها من أسرار الإنسان، وأسرار النفس الإنسانية، وأسرار ترشد الإنسان إلى الخير ما يحتاج إلى تثويره ومناقشته.

وفي هذه القصة وعظ أيضًا لهؤلاء المكذبين؛ لأن سلوك أصحاب القصة بعد حصول الطغيان منهم وبعد رؤيتهم لنتيجة الطغيان سلوك يمدحون عليه كما سيتبين -إن شاء الله-

نبدأ أولًا بسماع الآيات وبعد ذلك نناقش ما ييسّره الله -عزَّ وجلَّ-:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

هذه الآيات، كما سمعناها، تثير الوجدان إذا كان الإنسان يقظانًا، تثير الوجدان في كون أن الإنسان وما يملك ملكًا لله، وأن هذا الإنسان المسكين الذي يظن نفسه مالك للأشياء ويدبر ويخطط، يفاجأ في كثير من الأوقات والأحيان بما يظهر عبوديته، بما يظهره عبدًا ذليلًا لرب العالمين وهو يحتاج أن يبقى هذا الشعور دائمًا معه، ففي مصلحتك أن تشعر أنك عبد، في مصلحتك أن تعرف أن سيّدك ومولاك الذي يملكك، ويدبرك، هو العظيم الكريم الرحيم، فلا تُقبل على المعصية إقبال المتحمس، بل ابذل جهدك أن تقدر حالتك ووضعك الحقيقي أيها الإنسان الضعيف. بدأت القصة بقوله تعالى: (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ) وهذه إشارة إلى جو السورة في كون أن قريشًا قد وهبها الله الأمن، ووهبها الرزق وكانت من أغنى العرب، وكانت لها مكانة، فرب العالمين سمى هذا كله بلاء. إنا بلونا قريشًا بالنعم، وها يذكرنا بسورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ) هؤلاء قريش وهذا الأمر سيكون لكل متذكر، كل من يتذكر ويتفكر سيرى أن هذه الحالة تشبه هذه الحالة، حالة ناس متمكنين ومتكبرين عن الحق (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا

قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) هذا نوع افتخار وغرور بسعة الرزق يؤدي إلى الاستخفاف بدعوة الحق، يؤدي إلى إهمال النظر في حقيقة دعوة الحق، هذا الأمر من الطبيعة الإنسانية التي تحتاج إلى مقاومة، مبتلى الإنسان بها فيحتاج إلى مقاومة، يحتاج أن يردّ نفسه.

حينما تنظر للآيات ستجد بعد القصة مباشرة قوله تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فتتصور أن الأمر يحتاج إلى جهد، وتقوى.

سعة الرزق أوقعت الناس -إلا المتقين- في بطر النعمة وإهمال الشكر، فجرّ هذا عليهم شر العواقب، الله ضرب للمشركين مثلًا بحال أصحاب الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم؛ لأن أصحاب الجنة قد استفاقوا.

وفي ضمن هذا أيضًا انظر لأصحاب الجنة ماذا لحقهم من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلفت الأسباب، فأنتم يمكن أن يكون لكم نصيب من هذا.

هنا ننبّه أن هذه القصة كانت معروفة عند العرب؛ لذا أشير إليها وكأنها موجودة في ذاكرتهم.

لنرى أحوال أصحاب القصة، كما قال -عزَّ وجلَّ- : (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) قريش وكل صاحب ملك يستطيع أن يتحكّم فيه يعتبر صاحب بلاء، وأصحاب الجنة نموذج بالنسبة لهم.

بدأت القصة بخبر عنهم من أكثر الأخبار عجبًا، لماذا؟ لأنك تجد أناسًا يتقاسمون، يُقسمون على معصية وشر، هذا الشيء المفزع! نعرف القصة إلى نهايتها، وأن رب العالمين أنزل عليهم غضبًا أذهب بحديقتهم التي أقسموا عليها، لكن تصور كيف يمكن أن تكون لحظة اتخاذ قرار وعزيمة على معصية، تكون نقطة تحول في حياة الإنسان! وتكون كأن الإنسان ضغط على زر فانفتح عليه الشر، ولكي تتصور هذا الخبر العجيب، هم يحملون نفسهم على الشر حملًا؛ لأنهم يقسمون على هذا الشر الذي يريدون أن يفعلوه، وهذا معناه أنهم يريدون أن يلزم بعضهم بعضًا بهذا.

وهنا يزداد خطر الصحبة، حينما تتفق مجموعة على القيام بمعصية غير حينما يقوم إنسان منفرد بالمعصية. فهؤلاء أقسموا، يعني يحلفون أنهم سيفعلون، وهذا إشارة إلى

إصرارهم على الشر، أقسموا أنهم سيصرمون هذه الحديقة، أنهم سيستيقظون في الصباح باكرًا قبل مجيء الفقراء ويجنون كل الثمار ويأخذونها لأنفسهم بعد ما كان والدهم يقسم الخير الذي في المزرعة، كما في القصص أنه كان يقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسم يرجع إلى الأرض وقسم يستفيد منه وقسم للفقراء، فهم قرروا ألا يحصل هذا، ولا يستثنون ولا ثمرة واحدة.

وكما هو معلوم في القصة رب العالمين وهو الملك العظيم، سلّط عليهم هذا الطائف، وهم نائمون جاءهم هذا الطائف. ونلاحظ هنا أعظم دلالة على الضعف، يظن الإنسان أنه يدبر نفسه، وهو ينام ويغفل عن تدبير نفسه ويدبره الحي القيوم -سبحانه وتعالى-

انظر حينما يقع الإنسان في معصية -وهؤلاء لم يقعوا بعد، لكن العزيمة على الباطل وعلى الشر التي كانت في نفوسهم جوزوا عليها، وهذا يحتاج إلى بيان-

يأتي الإنسان وهو مطمئن على أنه لا يحاسب على ما في قلبه، يقول الناس بعضهم لبعض: "نحن لا نحاسب على ما

في قلوبنا!" ويجعل قلبه مرتعًا للأفكار الباطلة، وللشر، ويقول: "أنا لا أحاسب عليها!" وهذه هي **المهمة التربوية** أن نفهم خطر القلب، وأن نعرف أن وظيفتنا تطهيره وتزكية النفس، وأن نعلم أن الأعمال تبدأ من عند القلب، وأن هناك فرق بين الفكرة الطارئة التي لا تثبت في النفس -وهذه لا يؤاخذ عليها الإنسان- وبين الفكرة الملحّة المتكررة التي يتأمّلها الإنسان ويقلّبها.

بمجرد كون الإنسان عقد عزمه على معصية وكأنه أخذ بأسبابها فخطط ورتّب بصورة إنسان ما بينه وبين التنفيذ إلا أن يأتي الصباح وإلا أن يخرج من بيته، وإلا أن يجد الإنسان الذي يريد إيذاءه...إلى آخره.

فلا بد أن يعرف الإنسان كما قال الإمام أحمد لابنه: "انوِ الخير فإن بخير ما نويت الخير." يجب أن يتصور الإنسان خطورة قلبه، وكيف أن عزمًا في القلب على معصية الرب وعلى التعامل مع ملكه -سبحانه وتعالى- على خلاف ما يريد -سبحانه وتعالى- هذا العزم جعل هذا الأمر يحصل لهم

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ) ماذا تتوقع عذاب الله! كيف تتوقعه؟ هل تتوقع أنه أمر صعب؟ لا والله.

الله -عزَّ وجلَّ- يقول في سورة يس (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ). هؤلاء في سورة يس خالفوا والله أنزل عقابًا، ما كان الأمر يحتاج إلى أن يكون هناك ملائكة (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) بدون أن تنزل ملائكة، بدون أن يكون أي شيء، صيحة واحدة أهلكهم الله بها! ماذا تتوقع الهلاك؟ !

الناس ليقاتلوا الناس يجيشون الجيوش ويدربونها ويدبرون أمورها، ورب العالمين يقول للشيء: "كن" فيكون (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ) .

ونلاحظ (عَلَيْهَا) هنا تفيد الشمول، وهم ما استثنوا ولا ثمرة واحدة، والطائف لما أتى ما ترك لهم حبة واحدة.

ونلاحظ أيضًا أن هذا الشيء صار وهم نائمون. كم أخذوا وقتًا وهم يدبرون ويستعدون، ثم غلبهم النوم، ناموا على أنهم غدًا سيفعلون ما يريدون!

حينما يكون الإنسان غافلًا عن ملكه، ويظنّ نفسه أنه يملكه ويسيطر عليه والنوم يقطعه عنه! فما أضعف الإنسان، وإنما نحن كلنا وما نملك في حفظ الرحمن، في حفظ الحي الذي لا يموت.

قال -عزَّ وجلَّ- : (وَهُمْ نَائِمُونَ)، يمكر الإنسان ويخطط ولا يشعر بأنه فتح على نفسه باب الشر. حصل ما حصل، طاف عليها الطائف وذهبت، هم لا يعلمون هذا.

(فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) هم قالوا أنهم سيصرمونها، والله قال إنها أصبحت كالصريم، والصريم أرض لا نبات فيها ولا تصلح للزراعة. هم في مشهد آخر تمامًا، لا يعلمون الغيب ولا يطلعون على ما حصل وليسوا بحافظين حتى لملكهم، تنادوا مصبحين، لما أصبحوا تنادوا وهم عازمون، ثم قال بعضهم لبعض: (أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ) نلاحظ أن **النسبة للنفس هذا سبب فساد القلب.**

سبب فساد القلب: هذا الشعور بالاستغناء عن الله وأننا تعبنا وعملنا، هم يقولون: (عَلَىٰ حَرْثِكُمْ) ونلاحظ حرث، أولًا: الحرث ليست هذه المرحلة، هم سيذهبون إلى المزرعة بأي

صورة قالوا عنه إنه حرث؟ هذا ثمر وليس حرثًا، الحرث يكون في بداية الزراعة، وهم يريدون أن يقولوا: "هذا حقكم، هذا تعبكم"، كأن بعضهم يقول لبعض: "قوموا لتعبنا، قوموا لنأتي بجهدنا الذي بذلناه." فالحرث الذي يكون فيه مشقة في بداية الزراعة، في نهايتها الحصاد، ما قالوا لهم: "قوموا على حصادكم"، ما قالوا لهم: "قوموا على حديقتكم، على زرعكم"، بل "على حرثكم"، على النقطة الابتدائية، وهذا يشير إلى أنهم يرون أنه جهدهم وتعبهم، ومن هذا فلنطهر قلوبنا ولنسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعلنا نعامل نعمه كما يحب ويرضى شاكرين ذاكرين ناسبيها لرب العالمين.

ما قالوا "هذه أرض الله، وهذا ملك الله، وهذا الذي وهبنا الله من قوة ومن أدوات كلها يُشكر عليها الله."

تبين لنا أن هذا الشيء في داخل نفوسنا، نشعر أننا نحن الذين تعبنا، ونلاحظ (أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ) على أساس أنهم مالكون هذا كله.

(إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ) كأن هذا نوع تقوية على العزيمة على المعصية، هذا يبين خطر الأصدقاء أو الأصحاب أو الجماعة

المجتمعين على معصية، فلو فترت عزيمة البعض كان الباقي يقوي لعزيمة الباطل.

انظر للجهل الذي في الإنسان (فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ) كلا الكلمتين تشير إلى معاني عجيبة في النفس الإنسانية، رب العالمين يصف لنا كأن هؤلاء كانوا يرون تصرف والدهم في المال، وإخراجه لحق الله كأنهم يرونه قيدًا يقيدهم هم يريدون أن ينفلتوا منه وينطلقوا.

وهذا بالمناسبة مما يوحيه إليك الشيطان وأنت في رمضان، كأن الصيام والقيام والاشتغال بطاعة الله، كأن الإنسان مقيد وينتظر أن يأتي نهاية الشهر من أجل أن ينطلق، وهذا التعبير نفسه الذي يستخدمه الناس، وهذا خطر. الانطلاق يكون بعد قيد، فخطر أن يشعر الإنسان أن الطاعة قيد وأنه يريد أن يتحرر منه فيدخل في المعصية، والطاعة تقيدك عن الشر. هم كانوا يرون كأن والدهم قيدهم، هذا من الخطر.

لنرى (يَتَخَافَتُونَ) التي ما تدل إلا على جهل عظيم برب العالمين. تخفت صوتك وأنت ذاهب لتعصي رب العالمين! وكأن رب العالمين لا يعلم ما تقول! أو ما الذي جعلك تخفت

صوتك بالكلام عن هذه المعصية! والذي يظهر أنهم يتكلمون مع بعضهم ولا أحد معهم ليخفوا عنه، الجهل بالله سبّب لهم هذه الحال، والقلب مليء بإرادة السيطرة، وإرادة منع الفقراء من الحق الذي جعله الله حقًا، يتخافتون فيقولون: "لا يدخلها اليوم عليكم مسكين، اليوم نحن عندنا قرارات جديدة!"

رب العالمين يصف أنهم (غَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ) هم يظنون أنهم يملكون كل الأسباب وهذا ما سيأتي بالطغيان، عدم الشعور بالفقر إلى الله، والجهل باطلاع الله وعلمه وقدرته -سبحانه وتعالى- هذا كله مما يسبب أن الإنسان يصل إلى الطغيان.

وصلوا، لما رأوها (قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ) "هذه ليست أرضنا، أكيد أننا مخطؤون!" ما تعرفوا عليها، وهذا طائف فقط جاءهم، ما أحقر العباد على الله حينما يعصونه، وما أكرمهم حينما يتقونه -سبحانه وتعالى-، اكتشفوا أن العقاب نزل عليهم فجاءتهم حالة اليقظة التي جعلتهم يفهمون أن هذا أثر ذنبهم، ما قالوا "ما فعلنا شيئًا بعد، نحن فقط عزمنا"، ويدخلون في كلام جدلي، أو أليس هذا من حقنا؟ أليس هذا

مكاننا؟ ما دخلوا في كلام جدلي، بل تبين لهم مباشرة أنهم مستحقون لهذا العقاب، فبدأوا يُظهرون ندمهم، وهذا ما يميز هذه القصة أن أصحابها نادمون وليسوا ماكرين؛ لأن الماكر يحاول أن يخرِّج لنفسه عذرًا، لكن هم مباشرة قالوا: (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)، فيذكرهم أوسطهم، وهذا يذكرنا بمهمة تربوية، قيل: "إنه الأوسط بينهم" أو الوسط المقصود" مدحه باستقامته."

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) هو اعترض وبيّن لهم أن هذا خطأ، هذا الإنسان في قلبه خير لكن الجماعة غلبته، وهذا يذكرنا بضغط الجماعة التي غلبته فسار معهم. لما تنادوا كان معهم، لما غدوا على حرد كان هو معهم. ضغط المجتمع أثّر عليه.

قال لهم: (لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) نلاحظ أن التسبيح هو مطهرة القلب، هو الأداة التي نستخدمها لتطهير القلب مع الاستغفار. هذا الذي في قلوبكم من ظنكم أن الفقراء الله تركهم لكم وهم محتاجون لكم شخصيًا، وأن هذا الذي بين يديكم مُلككم ولن تفرطوا فيه، كل هذا من سوء الظن، هنا يقول لهم: "إن

ظنونكم التي في نفوسكم هي التي أردتكم وجعلتكم في هذا الموقف، لولا أنكم تسبحون الله وتنزهونه وتقولون إن الملك ملكه، لو فعلتم هذا لنجاكم الله. "

لكن سنعود هنا ونؤكد أن الله مطلع على ما في القلوب ويبتلي الإنسان بمجموعة فتن تظهر ما في قلبه، فهؤلاء تلاوموا، وهؤلاء وقع منهم ما يدل على ندمهم حتى أنهم وصفوا نفسهم:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) الطغيان آفة الإنسان، الطغيان أزمة يمر بها الإنسان، إذا لم يكن متنبّهًا إلى التقوى، يمر بها في حياته في مواقف تمر عليه، يمنع ما يمكن أن يسمح به طغيانًا، ويأخذ ممن في يده الحق طغيانًا؛ هذا حقه تأخذ منه طغيانًا. ونماذج الطغيان لا تنتهي، لكن يبقى الإنسان راغبًا في أن يطهّر الله قلبه، وألا يعرض نفسه لقرارات خطيرة تأخذ منه ثواني لكنها تغير مجرى حياته، فلا يستهِن بهذا، (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ).

سنرى في الآيات التالية كيف أن الإنسان يفسد نفسه بمجموعة ظنون:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

كما سمعنا هذه الآيات، أشارت إلى المتقين (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) الذي يتقي هذا الحال، يتقي هذا الوضع، يتقي الطغيان لأن الطغيان معروض عليه هنا وهنا وفي كل مكان، فلا بد أن تكون تقيًا، تتقي الطغيان، حينما تملك أقل شيء أو أعلى شيء تتقي أن تطغى، عندك سلطة تتقي أن تطغى بها.

هذا الطغيان كأنه الخطر الذي يحيط بالإنسان لمن لم يطهّر قلبه، وتطهير القلب من وسائله مراجعة الظنون التي يظنها الإنسان، ومن هذا، هذا الظن في الله -عزَّ وجلَّ- الذي ذُكر

في الآيات. بعدما انتهت القصة قال ربنا: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) هذا من أفسد الفساد: أن تظن أن الله يجعلك، وأنت طائع مقبل عليه، تحبه، تتقيه، تعالج نفسك، تحاسبها، تراجع مواقفك، تتخذ قراراتك بعد طول تفكير هل هذا يرضي الله أو لا يرضيه، بعد استخارة واستشارة من أجل ألا تزلّ قدمك، هنا في ربا، أو هنا في معاملة محرمة، أو هنا في كلام لا يرضاه رب العالمين، وإذا أخطأت على أحد وجدت نفسك تدعو له، تبذل جهدك أن تسلِّم المسلمين من لسانك ويدك، وتسلم قلبك لرب العالمين. معقول إنسان هذه حالته في كل الحياة، وحينما تأتي مواسم الطاعة يزداد، معقول هذا مثل المجرم الذي يقترف السيئة بعد السيئة؟!

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) لا تظن أن الذي في سرائه شاكرًا وفي ضرائه صابرًا، والذي يحمل خبيئة في فؤاده من أعمال الخير، يختبئ لأجل أن يصنع خيرًا، يبذل جهده أن يكون مخلصًا، هل يمكن أن يتساوى هذا بالمجرم الذي يقضي ليله ونهاره في التفكير في معاصي الله؟

مهما ظهر في الظاهر أنهم متساوون، أو ربما حتى أن أهل الباطل أحسن من أهل الحق، لكن لا يمكن أن تظن في الله أنه يساوي بين الاثنين، لا يمكن أن تظن هذا! فلا يقول لك أحد إن هؤلاء إذا كان لهم في الدنيا نصيب من الأعمال الصالحة، وهؤلاء ليس لهم نصيب من الأعمال الصالحة، ربنا غفور رحيم، نقول: نعم، إنه غفور لمن أتى بأسباب المغفرة (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] نبئهم بهذا لكي يأخذوا بأسباب المغفرة ويتقوا أسباب العذاب. هذا الخبر يعني أن ربنا يقبل استغفار المستغفرين، هذا الخبر يعني أنه -سبحانه وتعالى- يرحم المستغفرين إذا أقبلوا فاستغفروا.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) إنسان مسلّم قلبه لرب العالمين ومسلّم المسلمين من لسانه ويده، ومستسلم لقدر الله، ويتعامل مع ما وهبه الله على أنه ملك لله، هل هذا يتساوى مع المجرم الذي يقضي أوقاته في التفكير بالجرائم؟ لا تسيء الظن في رب العالمين (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ).

مسألة عظيمة تحتاج إلى مزيد إيضاح وهي اليقين بعدم تساوي المسلمين والمجرمين، وعدم تساوي الذين آمنوا

---

[1]() الحجر: 49.

وعملوا الصالحات بالذين اجترحوا السيئات، وقد تكرر ذكر شأن عدم المساواة، مما يوجب علينا أن نجعل هذه من المهمات، أنت أيها الإنسان حينما تكون عازمًا على الطاعات، غير حينما تكون عازمًا على المعاصي، والعياذ بالله.

هذا ما تيسّر لنا في هذه المهمات التربوية، والله أعلم ماذا سيكون غدًا، إن كان رمضان كان لنا موعد وإن لم يكن فيجمعنا رب العالمين مرات ومرات في هذا العلم وفي هذه المجالس، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- وهو العليم، إن كان في سابق علمه أن يجمعنا -سبحانه وتعالى- في مثل هذ الشهر في هذه المجالس، فنسأله أن يبارك لنا فيه، وإن قضى بقطع آجالنا فنسأله أن يحسن الخلافة على باقينا، وأن يوسّع برحمته على ماضينا، اللهم آمين.